﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنفال: 30]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

في مناسبةِ هذهِ الآيةِ لما قبلَها ثلاثةُ أوجهٍ:

تـذكـيرٌ بتـمـامِ نـعـمِ الـلـهِ على النَّبيِّ ﷺ وأمَّتِه

الأوَّلُ: لمّا ذكَّرَ اللّهُ المؤمنين نعمَهُ عليهم بقوله: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ﴾ [الأنفال: 26]؛ ذكَّرَ رسولَهُ نعمَهُ عليه، وهو دفعُ كيدِ المشركين ومكرِ الماكرين عنْهُ[1]، أي: "مسوقٌ لتذكيرِ النِّعمةِ الخاصَّةِ به ﷺ بعد تذكيرِ النِّعمةِ العامَّةِ للكلِّ"[2].

الثاني: لمّا وعدَ سبحانه في الآيةِ السّابقةِ المؤمنينَ بالفضلِ العظيمِ؛ ذكَّرهم من أحوالِ داعيهم وقائدِهم وهاديهم ﷺ بما يدعوهُم إلى ملازمةِ أسبابهِ في سياقِ المخاطبةِ لهُ ﷺ تذكيرًا بنعمتهِ، وإشارةً إلى دوامِ نصرتِه[3].

الثّالث: لمّا أخبرتِ الآيةُ السّابقةُ أنَّ اللّهَ يجعلُ للمتَّقي فرقانًا يمنعُ من الاجتراءِ على أهلهِ ومالهِ وعرضهِ ظاهرًا، أتبعتْ بأنَّ اللّهَ يحفظُ رسولَهُ من مكرِ مَنْ مَكَرَ بهِ، بل يمكرُ لَهُ على ماكرهِ، فحفْظُ اللّهِ لنبيِّه هو حفظٌ لأمَّتِه.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَمْكُرُ﴾: الميمُ والكافُ والرّاءُ كلمتانِ متباينتانِ: إحداهما: الاحتيالُ والخداعُ، والأخرى: خدالةُ السّاق، ومادَّة الكلمةِ فيها معنى الاختزانِ الرَّقيق أو اللَّطيفِ الَّذي لا يبرزُ متميِّزًا، فالمكرُ: هو تدبيرٌ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/477.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/18.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 3/210.

يُخْفَى، ويُخْتَزَن لأحْداثٍ أو أُمور لتقعَ في المستقبل على نحوٍ ما، والمكرُ: احتيالٌ في خفيةٍ[1]، وعرَّفَهُ الرّاغبُ بأنَّهُ: "صرفُ الآخرين عمّا يقصِدُهُ بحيلةٍ"، وذلك ضربان: مكرٌ محمودٌ: وذلك أن يتحرَّى بذلكَ فعلًا جميلًا، ومكرٌ مذمومٌ: وهو أن يتحرَّى به فعلًا قبيحًا[2].

ومعنى ﴿يَمْكُرُ بِكَ﴾: يوقعونَ الضُّرَّ بكَ خفيةً، ويدبِّرونَ لك في الخفاء[3].

2) ﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾: الثّاءُ والباءُ والتّاءُ كلمةٌ واحدةٌ، وهي دوامُ الشَّيءِ، والثَّباتُ: ضدُّ الزَّوالِ، وثبتَ فلانٌ في المكانِ: أقامَ فيهِ، وثبَّتَهُ عنِ الأمرِ: ثَبَّطَهُ، ويستعملُ في الثَّباتِ النَّفسي بمعنى تسكينِ القلبِ، كقولهِ تعالى: ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [الفرقان: 32][4].

ومعنى ﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾: يُقيِّدوك بحبسٍ أو إيثاقٍ ونحوه، أو يثبِّطوكَ، ويحيِّروك، أو يجرحوكَ جراحةً لا تقومُ، ولا تتحرَّكُ معها[5].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

مكرُ الكافرينَ باطلٌ مأفونٌ ومكرُ اللهِ حقٌّ مكنونٌ

واذكرْ - يا محمَّد ﷺ - نعمتي عليك حينَ تمالأَ عليكَ كفّارُ قريشٍ، واتَّفقت كلمتُهم على الكيدِ بكَ في خفاءٍ، وإيقاعِ الأذى بإحدى خِلالٍ ثلاثٍ: إمّا الحبسُ الَّذي يمنعُكَ من لقاءِ النّاس ودعوتِهم إلى الإسلامِ، وهو أشدُّهُ عليك، وإمّا القتلُ بطريقٍ لا يكونُ ضررُها عظيمًا عليهِم، وإمّا الإخراجُ والنَّفي من مكَّةَ، وقد اختاروا قتْلَكَ بأن يأخذوا من كلِّ قبيلةٍ رجلًا حتَّى يتفرَّقَ دمُكَ في القبائلِ كلِّها، وهذا دأبُهم معَك، ومع من اتَّبعكَ مِنَ المؤمنينَ تدبيرُ الأذى

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (مكر).
(2) الراغب، المفردات، ص: 772.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/518، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/327.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (ثبت).
(5) أبو حيان، البحر المحيط: 5/309، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/18، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/327.

لكم، أي: مكرُهُم مستمرٌّ وكثيرٌ ومتنوِّعٌ، واللّهُ محيطٌ بما دبَّروا، ويدبِّرون، فقد أخرجكَ من بينِهم إلى دارِ الهجرةِ، ووطن السُّلطان والقوَّةِ، واللّهُ خيرُ الماكرين؛ لأنَّ مكرَهُ نصرٌ للحقِّ، وإعزازٌ لأهلِه، وخذلانٌ للباطلِ وحزبِه.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نوعُ العطفِ بالواوِ:

إمّا من عطفِ القصّةِ على القصّةِ، وإمّا من عطفِ المفردِ على المفردِ

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ عاطفةٌ[1]، واختُلِفَ في نوعِ العطفِ، فاحتُمل أن يكون العطفُ من بابِ عطفِ القصَّةِ على القصَّةِ من قصصِ تأييدِ اللّهِ رسولَهُ ﷺ والمؤمنين، فيكون (إذْ) متعلِّقًا بفعلٍ محذوفٍ تقديره: (واذكر إذ يمكرُ بكَ الَّذين كفروا)، على طريقةِ نظائرِه الكثيرةِ في القرآنِ.

واحتُمِلَ أن يكونَ من قبيلِ عطفِ المفردِ على المفردِ على قوله: ﴿إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنفال: 26] فهو متعلِّقٌ بفعلِ (اذكروا)، فإنَّ المكرَ بالرَّسولِ ﷺ مكرٌ بالمسلمين، ويكون ما بينهما اعتراضٌ، فهذا تعدادٌ لنعمِ النَّصرِ الَّتي أنعمَ اللّهُ بها على رسولِه ﷺ والمؤمنين، وهذه نعمةٌ خاصَّةٌ بالنَّبيِّ ﷺ والإنعامُ بحياتِه وسلامتِه نعمةٌ تشملُ المسلمين كلَّهم، فسلامتُهُ ﷺ سلامةٌ لأمَّتِه[2].

نكتةُ الإضمارِ في موضعِ الإظهارِ:

مقامُهُ الشَّريفُ ﷺ ليس كأيِّ مقامٍ

لم يأتِ بمادَّةِ الذِّكرِ في خطابِ النَّبيِّ ﷺ فلم يقلْ لهُ: (واذكر إذ يمكر بك الذين كفروا)؛ بخلافِ خطابِه المتقدِّم للمسلمين، رغم أنَّ هاتينِ الآيتينِ وما بعدَهما تذكيرٌ للنَّبيِّ ﷺ بما كانَ من حالِه وحالِ قومِه معَهُ في مكَّةَ[3]، ونكتةُ ذلك: أنَّ خطابَ النَّبيِّ ﷺ وأمرَهُ بالذِّكر في القرآن

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/18.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/327.
(3) رضا، تفسير المنار: 9/540.

لم يرد إلّا في معنيين: الأوّل: ذكرُ الأنبياءِ السّابقينَ، الآخر: الذِّكرُ بمعنى العبادةِ كالتَّسبيحِ والتَّحميدِ، وهنا لم يُذكرِ الذِّكرُ، لأمرين: كي لا يتساوى ﷺ مع عمومِ المؤمنين، فإنَّ له منزلةً خاصَّةً، والثّاني: أنَّ الحذفَ أبلغُ منَ الذِّكرِ، فإنَّ ذكرَ مكرِ الماكرين يُرادُ به بيانُ مسلكِهم، وأخلاقِهم معهُ ﷺ وأنَّهم مستمرّون في ذلك، لا مجرَّدَ تذكُّرِ ذلك الصَّنيعِ منهم، بل الاعتبارُ لما سيؤولُ إليه الحالُ في لاحقِ الأيّامِ، بما ستكونُ عليه عاقبتهم.

غرضُ الإضافةِ:

أفادتْ إضافةُ إذْ للجملةِ ﴿يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ تعريفَ المضافِ إليهِ (إذ) أي: التَّعريفُ بالوقتِ الَّذي اجتمعَ فيه كفّارُ قريشٍ في دارِ النَّدوةِ ليوثّقوا النَّبيَّ ﷺ ويحبسوهُ، أو يقتلوهُ كلُّهم قتلةَ رجلٍ واحدٍ، أو يخرجوهُ، فهو استحضارٌ لذلك الزَّمنِ المعروفِ، وليس المقصودُ الزَّمنَ لذاتِه، بل الحدثُ الَّذي وقعَ في ذلكَ الزَّمانِ.

التَّعريفُ بالحدثِ الَّذي وقعَ في دارِ النَّدوةِ

نكتةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المُضارِعِ:

عبَّرَ القرآنُ بالمضارعِ ﴿يَمْكُرُ﴾ في موضعِ الماضي الَّذي هو الغالبُ مع (إذ) استحضارًا للحالِ الَّتي دبَّر فيها المشركونَ المكرَ[1]، فالفعلُ المضارعُ يصوِّرُ هذا الحدثَ صورةً تُلمسُ في كلمةِ ﴿يَمْكُرُ﴾ صيغةً ومادَّةً، فتثيرُ في المخيِّلةِ صورةً للتَّدبيرِ الخفي الذي يقومُ على الاحتيالِ دونَ المكورِ بهِ، التَّدبير الذي قامَ به المشركونَ من اجتماعِهم في دارِ النَّدوةِ، ثُمَّ اجتماعِهم على قتلِ النَّبيِّ ﷺ وفْقَ خُطَّةٍ خبيثةٍ، تنجيهم من تبعاتِ فعلتِهم.

تصويرُ مكرِ المشركينَ برسولِ اللهِ ﷺ

واستحضارُ الحالِ أو ما يعرفُ كذلك بحكايةِ الحالِ الماضيةِ إنَّما يكونُ في الأمرِ العظيمِ، وأيُّ أمرٍ أعظم من أن يُمكرَ برسولِ اللّهِ ﷺ ويفيدُ كذلك استمرارَ هذا المكرِ وعدم انقطاعِه.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/327.

سرُّ التَّعبيرِ بالمكرِ لا بالخديعةِ:

النَّبيُّ ﷺ قد يقعُ عليهِ المكرُ لكنَّهُ لا يُخدعُ

استعمل القرآنُ مادَّة المكرِ في قوله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ﴾ دونَ (يخدعك)، فلم يقل: (وإذ يخدعك) الذين كفروا، لتميُّز المكرُ بمعانٍ ودلالاتٍ لا تؤدّيها مادَّةُ الخداعِ، ولا تتناسبُ مع موضوعِ الآياتِ وسياقها، ولا بالَّذي حدثَ في واقعِ الأمرِ تاريخيًّا، فالمكرُ في أصلِ معناهُ التَّدبيرُ، وقد يكونُ محمودًا أو مذمومًا، بخلافِ الخداعِ الَّذي لا يكونُ إلّا مذمومًا، ولذا استعملَ المكرَ؛ ليصحَّ نسبتُهُ للّهِ سبحانه ﴿وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾، دونَ حاجةٍ للقولِ بالمشاكلةِ.

وفي الخداعِ معنى الغفلةِ وعدمِ التَّنبُّهِ والاحتياطِ من المخدوعِ، وهذا لا يناسبُ حالَ النَّبيِّ ﷺ ومقامَهُ، وكذا لا يقتضي الخداعُ وجودَ تدبيرٍ بخفاءٍ بخلافِ المكرِ، فلا يكونُ بدون تدبيرٍ بخفاءٍ، وهو أصلُ معناهُ، ولذا كان المكرُ هنا أنسبَ لمقامِ حالِ المشركين الَّذين كما تذكرُ الرِّواياتُ اجتمعوا خفيةً، وتشاوروا، ودبَّروا، وأخفَوا تدبيرَهم.

معاني الباءِ ودلالاتها:

مَكْرُ المُشركين لصيقُ الوقوعِ بهِ ﷺ

الباءُ في قولهِ تعالى: ﴿بِكَ﴾ تحملُ معنى الإلصاقِ، أي: يدبِّرون كيدًا ومكرًا يلتصقُ بك، ولا ينفكُّ عنك؛ فإمّا أن يثخنوك بالجراحِ بحيثُ لا تتحرَّكُ أو يقتلوك أو يخرجوكَ من مكَّةَ، أو يدبِّرونَ مكرًا، وهم ملتصقونَ بكَ، وهم أعلمُ النّاسُ بصدقِكَ وأمانتِكَ، فقد كنتَ فيهم الصّادقَ الأمينَ، وعلى كلا المعنيين، ففي التَّصويرِ لحالِهم شتمٌ وإهانةٌ بهم، فمن يلتصقُ برسولِ اللّهِ، ويعلمُ صدقَهُ، وينكرُ رسالتَهُ، مستحقٌّ للتَّوبيخِ والتَّقريعِ.

ويحتملُ أن تكونَ الباءُ للسَّببيَّةِ، والمعنى: "هذا المكرُ هو بسببكَ - يا محمَّدُ - هم جعلوك سببًا لمكرِهم ﴿لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ

يُخۡرِجُوكَ﴾"[1]، وفي هذا إشارةٌ إلى حقدِهم وحسدِهم لرسولِ اللّٰهِ، قال تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَهۡلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوۡ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ٢٨﴾ [الملك: 28].

نُكْتةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ على الفاعلِ:

قدَّمتِ الآيةُ الجارَّ والمجرورَ ﴿بِكَ﴾ في قولِه: ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ﴾؛ لنكاتٍ عدَّةٍ، منها: لفتُ انتباهِ النَّبيِّ ﷺ وتنبيهُهُ إلى ما حيكَ ويُحاكُ لهُ من مكرٍ، وبيانُ شدَّةِ تعلُّقِ مكرِهم بالنَّبيِّ ﷺ، والوقوفُ على مدى الخُبثِ والمكرِ والكراهيةِ الَّتي يحملُها المشركونَ تجاهَ النَّبيِّ ﷺ، وبيانُ شدَّةِ الحسدِ لهُ ﷺ فهم يمكرونَ بكَ أنتَ على وجهِ الخصوصِ.

بلغَ الحسدُ بالمشركينَ مبلغًا لم يستطيعوا معهُ إلّا المكرَ والغدرَ

نكتةُ التَّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ:

عُرِّفَ المسندُ إليهِ بالاسمِ الموصولِ في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ لقصدِ الإبهامِ الَّذي من أسرارِه: تسليطُ الضَّوءِ على فعلِ المكرِ لا على شخوصِهم، فهي صفةٌ ملازمةٌ للكافرين في كلِّ زمانٍ ومكانٍ.

وتحقيرُهم بالوصفِ النّاقصِ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾.

والتَّنبيهُ على التَّعميمِ، فصفةُ المكرِ غيرُ خاصَّةٍ بفئةٍ معيَّنةٍ، وخاصَّةً أنَّ (الذين) من ألفاظِ العمومِ، أي: إنَّها تشملُ أدنى ماكرٍ برسولِ اللّٰهِ ﷺ وليس بالضَّرورةِ أن يكونَ راسخًا في المكرِ الَّذي يفيدُهُ التَّعبيرُ بـ(الكافرون).

توجيهُ الأذهانِ إلى مكرِ الكافرينَ لا إلى شخوصِهم وأسمائهم

ولفتُ الانتباهِ في الإبهامِ؛ ليقعَ بعدَهُ التَّفصيلُ، فيتمكَّنُ معناهُ مِنَ الذِّهنِ.

نكتةُ جمعِ الاسمِ الموصولِ:

في إيرادِ الاسمِ الموصولِ جمعًا ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ إشارةٌ إلى أنَّهم فريقٌ اجتمعَ، وتآزرَ على المكرِ بالنَّبيِّ ﷺ

الَّذينَ كفروا: فريقٌ اجتمعَ على المكرِ، وتآزرَ على الغدرِ

(1) السامرائي، لمسات بيانية: 5/156.

وبالمؤمنينَ، والمكرُ وإن كانَ من ساداتِهم وكبرائِهم، إلا أنَّ عمومَ الكافرينَ لمّا وافقوهم، أو رضوا بفعلِهم، أو سكتوا عنهُ نُسِبَ لهم جميعًا، يقولُ ابن عاشورٍ: "وإنَّما أُسنِدَ إلى جميعِ الكافرينَ؛ لأنَّ البقيَّةَ كانوا أتباعًا للزُّعماءِ يأتمرونَ بأمرِهم"[1]، ويؤكِّدُ ذلك مجيءُ أفعالِ مكرِهم بصيغةِ الجمعِ (ليثبتوك) (يقتلوك) (يخرجوك).

معنَى اللَّامِ الدّاخلةِ على الأفعالِ:

علَّةُ المكرِ إنهاءُ خطرِ الإسلامِ على الكفرِ

اللّامُ الدّاخِلَةُ على الأفعالِ: ﴿لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ هي حرفُ جرٍّ لفظًا، وحرفُ تعليلٍ، أي: ما بعدها مسبَّبٌ عمّا قبلَها، يقول البقاعيُّ: "ثم بيَّن غايةَ مكرِهم، فقال: ﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾"[2]، أي: مكروا بكَ لكي يحبسوكَ أو يقتلوكَ أو يخرجوكَ.

بلاغةُ ترتيبِ الأفعالِ:

المنعُ من الدَّعوةِ أشدُّ من القتلِ، والقتلُ أشدُّ من النَّفي

قدَّمَ البيانُ الإلهيُّ ﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾ أوَّلًا مراعاةً لما كان أشدَّ على النَّبيِّ ﷺ وهو أن يحبسوهُ في دارِه، فلا يتمكَّنُ من لقاءِ النّاسِ ومن دعوتِهم إلى الدّينِ الحقِّ، فقد كان هذا أشدَّ على النَّبيِّ ﷺ من الموتِ في سبيلِ اللّهِ، كيف لا؟ واللّهُ حثَّ على الشَّهادةِ في سبيلِ اللّهِ لأجلِ نشرِ الحقِّ وتبليغِه، ثم يأتي آخرًا الإخراجُ من مكَّةَ الَّتي نشأ بها، وأحبَّها؛ لأنَّها بلدُ اللّهِ الحرامُ وفيها قبلةُ المسلمينَ.

وممّا يؤكِّدُ هذا أنَّ النَّظْمَ اقتصرَ في قولِه تعالى: ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [التوبة: 13] على الأدنى، وهو الهمُّ بالإخراجِ، ليعلمَ غيرَهُ بالطَّريقِ الأولى؛ إذِ الإخراجُ أهونُ من القتلِ والحبسِ[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/328.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 3/210.
(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 6/222.

دلالةُ استعمالِ حرفِ ﴿أَوْ﴾:

استعملتِ الآيةُ حرفَ العطفِ (أو) الَّذي يفيدُ التَّخييرَ بين شَيئينِ أو أشياءَ، للدَّلالةِ على التَّردُّدِ الَّذي كانَ منهم بين الحبسِ والقتلِ والإخراجِ، والَّذي كانَ بيانًا لما كانوا يمكرونَهُ من مَكْرٍ.

الباطلُ وإن استعلى باتِّحادِه؛ يبقى مترددًا في اتِّخاذِ قرارِه

وهذا التَّردُّدُ يدلُّ على أنَّهُ كان منهم تشاورٌ في أمرِ النَّبيِّ – صلى اللّه عليه وآله وسلم – وما كانَ يهمُّهم، ويهتمّونَ بهِ من إطفاءِ نورِ دعوتِه، وبذلكَ يتأيَّدُ ما وردَ من قصَّةِ دارِ النَّدوةِ.

معاني الواوِ ودلالاتها:

تحتملُ الواوُ في قولِه: ﴿وَيَمْكُرُونَ﴾ وجهين:

إمّا أن تكونَ حاليَّةً أو اعتراضيَّةً ومكرُهم على المعنَيَيْن يُقابلُهُ مكرُ اللهِ

أحدُهما: أن تكونَ واوَ الحالِ، والجملةُ حالٌ من ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وهي حالٌ مؤسِّسَةٌ غيرُ مؤكِّدةٍ، باعتبارِ ما اتَّصلَ بها من الجملةِ المعطوفةِ عليها، وهي جملةُ: ﴿وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ﴾ فقولُهُ: ﴿وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ﴾ هو مناطُ الفائدةِ من الحالِ، وما قبلَهُ تمهيدٌ له، وتنصيصٌ على أنَّ مكرَهم يقابلُهُ مكرُ اللّهِ، ويكونُ المضارعُ في ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ﴾؛ لاستحضارِ حالةِ المكرِ.

وثانيهما: أن تكونَ واوَ الاعتراضِ، أي: العطفُ الصّوريُّ، ويكونَ المرادُ بالفعلِ المعطوفِ الدَّوامَ، أي: هم مكروا بكَ ليثبتوكَ، أو يقتلوكَ، أو يخرجوكَ، وهم لا يزالونَ يمكرونَ، فتكونُ جملةُ: ﴿وَيَمْكُرُونَ﴾ معترضةً، وتكونُ جملةُ: ﴿وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ﴾ معطوفةً على جملةِ: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾[1].

غرضُ التَّعبيرِ بالفعلِ المُضارِعِ:

مكرُ الكافرينَ بأهلِ الحقِّ مستمرٌّ؛ فلا بدَّ من استشعارِ الخطرِ المستمرِّ

إذا كانت الواوُ حاليَّةً؛ فالغرضُ الأوَّلُ: هو تصويرُ المكرِ في المخيِّلَةِ ليبقى النَّبيُّ ﷺ والمؤمنون يستشعرونَ خطورتَهُ، فيحذرونَ منه، ويدفعونَهُ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/328.

وأمّا إذا كانتِ الواوُ اعتراضيَّةً، أي: العطفُ الصّوريُّ، وكان المرادُ بالفعلِ المعطوفِ بعدَها ﴿وَيَمْكُرُونَ﴾ الدَّوامَ، فإنَّها تفيدُ في المقامِ الأوَّلِ: الاستقبالَ والاستمرارَ[1]، وكذلك الكثرة، قال أبو حيان: "إخبارًا باستمرارِ مكرِهم وكثرتِه"[2]، أي: إنَّ مكرَ الكافرين وأهلَ الباطل بالنَّبيِّ ﷺ وبالمؤمنين كثيرٌ ومستمرٌّ لا يتوقَّفُ، ولا ينقطعُ، وأنَّهم يجتمعونَ على هذا المكرِ، سواءٌ في مكَّةَ قبلَ الهجرةِ أو بعدَ الانتقالِ إلى المدينةِ والتَّحالفِ مع القبائلِ ومضايقةِ المسلمين وقتالِهم[3].

وفي كلا المعنيين للواو يفيدُ التَّعبيرُ بالمضارعِ استثارةَ المؤمنينَ ليحذروا من مكرِ الكافرينَ، وليدفعوهُ بالحيطةِ والتَّدبيرِ في كلِّ وقتٍ.

نكتةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ:

المكرُ بالأمَّةِ حالةٌ مستمرَّةٌ تَبَعًا لحالةِ المكرِ بنبيِّها

عبَّر القرآنُ عن مكرِهم بصيغةِ المضارعِ في (ليثبتوك، ويقتلوك، ويخرجوك)؛ "لأنَّ تلكَ الأفعالَ مستقبلةٌ بالنِّسبة لفعل المكرِ؛ إذ غاية مكرِهم تحصيلُ واحدٍ من هذه الأفعال"[4]، كما أنَّ التَّعبيرَ بالمضارع يثيرُ في المخيِّلة صورةً لهذه الأفعال القبيحةِ من توثيقِ النَّبيِّ ﷺ وحبسِه حتَّى الموت، ومنعِه بذلك من أن يدعوَ إلى الحقِّ، أو الاجتماعِ على قتلِه، أو إخراجِه من وطنِه منفيًّا مطرودًا، بما يوجبُ الحذرَ منهم في كلِّ زمانٍ.

كما يفيدُ التَّعبيرُ بصيغة المضارع معنى الاستمرارِ وعدمِ التَّوقُّف والانقطاع في محاولةِ إيذائِه ﷺ، وإثخانِه بالجراحِ أو قتلِه، أو إخراجِه من أيِّ مكانٍ يريدُ أن يستقرَّ فيه.

كما أنَّه يُفيدُ أنَّ هذهِ الأفعالَ مستمرَّةٌ في الأمَّةِ من قبلِ الأعداءِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/328.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 5/309.
(3) السامرائي، لمسات بيانية: 5/157.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/327.

الَّذين يتربَّصونَ بها، سواء أعداء الدّاخلِ أم الخارج، فهم ما بين حابسٍ لأهلِ الحقِّ، أو قاتلٍ، أو نافٍ نفيًا فعليًّا أو اضطراريًّا.

توجيه معنى الواوِ:

الواوُ: حرفُ عطفٍ، وهناك احتمالانِ في المعطوفِ عَليهِ، بما يعطي ثراءً في المعنى، فإمّا أن يكونَ العطفُ على الجملةِ الَّتي قبلَها مباشرة ﴿وَيَمْكُرُونَ﴾، ويكونَ بين الجملتين ازدواجٌ، أي: مكرُهم يقارنهُ مكرُ اللّهِ بهم، وإما أن يكونَ العطفُ على جملة: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾[1].

غرضُ التَّعبيرِ بالفعلِ المُضارِع:

مكرُ اللهِ المقترنُ بمكرِ الماكرينَ تسليةٌ للمؤمنينَ على مرِّ الأيامِ

يفيدُ التَّعبيرُ بالمضارعِ استحضارَ حالةِ مكرِ اللّهِ بهم في وقتِ مكرهِم[2]، وبالتّالي يفيدُ تهديدَ الكافرينَ بأنَّ اللّه لهم بالمرصادِ على الدَّوامِ، ليُبطِلَ مكرَهم، ويحبِطَ ما دبَّروا، ويدبِّرون من كيدٍ للنَّبيِّ ﷺ كما يفيدُ في الوقتِ ذاته بشارةً للنَّبيِّ ﷺ وللمؤمنين بأنَّ معيَّتَهُ ونصرَهُ لا ينقطِعُ، فهي تسليةٌ لهُ ﷺ وللمؤمنين.

بلاغةُ الإطنابِ:

عندَ تكاثرِ صورِ المكرِ تتكرَّرُ ألفاظُهُ الدّالَّةُ على خطورته

آثرتِ الآيةُ تكرارَ (المكر) صيغةً ومادَّةً في قولهِ تعالى: ﴿يَمْكُرُ بِكَ﴾ و﴿وَيَمْكُرُونَ﴾ و﴿وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ﴾ و﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾؛ لبيانِ خطورةِ مكرِ الكافرين وتأكيدِ وقوعهِ وكثرته وتنوُّعِه بصورٍ متعدِّدةٍ، حيثُ صرَّحتِ الآياتُ ببعضٍ منها: (ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجزك)، وأثرهِ السَّلبيِّ على حياة المؤمنين أفرادًا وجماعاتٍ، وبالتالي وجوبُ الحذرِ الدّائم منهُ ومواجهتهُ، وبالمقابلِ بيانُ لطفِ اللّهِ ومعيَّتِه للمؤمنين بهذا التَّنبيهِ والتَّحذيرِ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/328.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/328.

فنُّ المشاكلَةِ:

مكـرُ اللـهِ مكرُ جـــزاءٍ لا مكـرُ ابتداءٍ

تنوَّعتْ آراءُ المفسِّرين في قولِه تعالى: ﴿وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ﴾ بما يدلُّ على بلاغةِ نظمِها، فمنهم من عدَّها من بابِ المشاكلةِ في الكلامِ، بتسميةِ خيبةِ المسعى في مكرِهم أو مجازاتهم عليه باسم: المكرِ[1]، على سبيل المجازِ المرسلِ، والعلاقةِ السَّببيَّةِ.

ومنهم من عدَّها استعارةً تبعيَّةً من إطلاقِ المكرِ على الرَّدِّ؛ لأنَّهُ لمّا كانَ معنى المكرِ حيلةً يجلبُ بها مضرَّةً إلى الآخرين، وهو ما لا يجوزُ في حقِّه تعالى؛ كان المرادُ بمكرِ اللهِ ردَّ مكرِهم، أي: عاقبتُه ووخامتُه عليهم.

ومنهم من يرى أنَّ في الكلام استعارةً تمثيليَّةً، بتشبيهِ حالةِ تعليلِ المسلمين في أعينِهم الحاملةِ لهم على هلاكِهم بمعاملةِ الماكرِ المحتالِ الَّذي يظهرُ خلافَ ما يبطنُ[2].

نكتةُ إظْهارِ ما حقُّهُ الإضمارُ:

للاسمِ الأعظمِ وقـــعُ مَـهـابـةٍ وجرْسُ فخامةٍ

أظهرَ النَّظمُ لفظَ الجلالةِ ﴿وَٱللَّهُ﴾، ولم يقل: (وهو خير الماكرين)؛ إشارةً إلى أنَّ اللهَ الَّذي يجمعُ صفاتِ الكمالِ كلَّها لا يخفى عليه مكرُ الماكرينَ، ولا يعجزهُ تدبيرُ المناوئينَ، وأنَّ تدبيرَهُ فوقَ كلِّ تدبيرٍ، فلاسمِ الجلالةِ وقعُ مَهابةٍ، وجرْسُ فخامةٍ.

نكتةُ اختيارِ المفردات:

كلُّ مكرٍ يَبْطلُ، ويبورُ في مقابلةِ تدبيرِ اللهِ الَّذي لا يُغالبُ

عبَّرتِ الآيةُ بكلمةِ (خير) وهي من أسماءِ التَّفضيلِ، رغم أنَّهُ لا خيرَ في مكرِهم، لينبِّهَ على أنَّ كلَّ مكرٍ يبطلُ في مقابلةِ تدبيرِ اللهِ تعالى؛ إذ المقصودُ بخير الماكرين هنا أقوى الماكرين، فوضع خير موضع أقوى وأشد[3]، وأنفذ وأبلغ، وهذا معنى الخيريَّةِ والتَّفضيلِ في

(1) الهروي، تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن: 10/430.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 3/567.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/478.

النَّظم، فالإضافةُ للتَّفضيلِ على المضافِ؛ لأنَّ لمكرِ الآخرين أيضًا نفوذًا وتأثيرًا في الجملةِ، وهذا معنى أصلِ فعلِ الخيرِ، فتحصلُ المشاركةُ فيهِ[1]، والمعنى: أنَّ مكرَهُم يبورُ، أي: يكسدُ، ويفسدُ دونَ مكرِ اللّهِ بهم حين أخرجَهم من مكَّةَ، وقتلَهم، وأثبتهم في قليبِ بدرٍ، فجمعَ عليهم مكراتِهم جميعًا، وحقَّق فيهم قولَهُ: ﴿وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ﴾ وقوله: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ﴾[2].

دلالةُ التَّعريفِ والجمعِ:

التعريف والجمعُ يفيدانِ العمومَ

التَّعريفُ في قولِه: ﴿ٱلۡمَٰكِرِينَ﴾ هو جمعٌ معرَّفٌ بـ (أل) الجنسيَّةِ الاستغراقيَّةِ، وهو جمعٌ مضافٌ، ودلالتُهُ في الآيةِ: العمومُ، فيشملُ كلَّ ماكرٍ يمكرُ بدينِ الإسلامِ من الجنِّ والإنسِ ومن العربِ والفرسِ والرّومِ، وممَّن في زمانِه أو بعدَ حياتِه إلى قيامِ السّاعةِ، ولا يدخلُ من يمكرُ في سبيلِ الحقِّ، فإنَّ المكرَ بقصدِ الخيرِ، وردِّ مكرِ الماكرين، مطلوبٌ شرعًا، فهو من تدبيرِ الحقِّ وأهلِه، واللّهُ يُعين على فعلِ الخيرِ.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

المكرُ والخداعُ:

المكر تدبيرٌ بخفاءٍ، والخداعُ: إيهامُ المخدوعِ لغفلتِهِ وعدمِ احتياطِهِ

المكرُ والخداعُ متقاربانِ دلاليًّا، إذ يُعرَّفُ كلٌّ منهما بالآخرِ في اللُّغةِ، فالمكرُ: الاحتيالُ والخداعُ، والخداعُ: إظهارُ المرءِ خلافَ ما يخفي، وهو فعلٌ ماكرٌ يريدُ به فاعلُهُ أن يوهمَ غيرَهُ، فيظهرُ لهُ حسنًا، ويخفي قبيحًا[3]، إلّا أنَّ هناك بعضَ الملامحِ الَّتي تُميِّز كلًّا منهما:

فالمكرُ يتميَّزُ في أنَّهُ: احتيالٌ من الماكرِ الَّذي يريدُ إيقاعَ الأذى بالمكورِ بهِ الَّذي هو آمِنٌ في نفسِه، ولا يعلمُ بما يخبِّئُهُ له الماكرُ الَّذي ينجحُ في مكرِهِ؛ إذا فجَأ المكورُ بهِ.

(1) الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 4/269.
(2) الزمخشري، الكشاف: 3/603.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (خدع).

بينما يتميَّزُ الخداعُ في أنَّ الخادعَ يوهمُ صاحبَهُ خلاف ما يريدُ به من المكروه، فيسترُ عنه وجه الصَّوابِ، فيوقعُهُ في مكروهٍ، وقد يعلم المخدوعُ بسوءِ طويَّةِ الخادعِ وعدائهِ، ولكنَّهُ يُخْدَعُ؛ إذا أتاه السّوءُ من حيثُ لا يحتسبُ لهُ، فالخداعُ يعتمدُ على ذكاءِ الخادعِ الَّذي ينجحُ في خداعهِ إذا فجأ عدوَّهُ من حيثُ لم يكن محتاطًا ولا متهيَّأً.

إذًا: المكرُ لا يبدي الماكرُ فيهِ للممكورِ بهِ شيئًا، وإنَّما يدبَّرُ بالخفاءِ، بينما الخداعُ يحاولُ فيه الخادعُ أن يوهمَ المخدوعَ بخلافِ الحقيقةِ ليوقعَهُ في المكروهِ، فالخداعُ لا يقتضي أن يكونَ بعدَ تدبيرٍ ونظرٍ كما المكرُ، كما أنَّ المكرَ لا يقتضي عدمَ حذرٍ واحتياطِ الممكورِ بهِ، بينما الخداعُ قد يعتمدُ على غفلةِ المخدوعِ[1].

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 260، ومحمد داود، معجم الفروق الدلالية، ص: 159 - 160، وعلي فهمي النزهي، الفروق اللغوية في تفسير الكلمات القرآنية، ص: 205.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس عشر، سورة الأنفال من الآية 27 إلى سورة التوبة الآية 22
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السادس عشر، سورة الأنفال من الآية 27 إلى سورة التوبة الآية 22
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 16 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-12-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 16 : المجلد السادس عشر، سورة الأنفال من الآية 27 إلى سورة التوبة الآية 22.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-768-12-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9828150 بتاريخ 2024/01/18م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»